المفاهيم الفلسفيَّة عند ديفيد هيوم
- بانوراما لأبرز المصطلحات -

خضر حيدر[1]

تشترك استخدامات ديفيد هيوم لمصطلحاته الفلسفيَّة، بوجهٍ عامّ، مع كثير من فلاسفة الغرب الذين سبقوه، ولا سيَّما تلك المصطلحات والمفاهيم الكلِّيَّة؛ مثل: الوجود، والإدراك، والعقل، والأخلاق، والشكّ، وسواها، غير أنَّه يمتاز عنهم بإضافته إليها أبعادًا خاصَّة تنسجم مع فلسفته الوضعيَّة.

وفي ما يلي إطلالة على أهمِّ المصطلَحات التي شكَّلت محور تفكير هيوم الفلسفيِّ، وقد استقيناها من أعماله ومن كتابات الباحثين والمتخصِّصين الغربيِّين؛ وهي: الإدراك، فلسفة الشكْ، الفاعليَّة، التجربة، تداعي الأفكار، العادة، الاعتقاد، السبب، الارتباط الضروريْ، الذَّاكرة والخيال، مقولة الجواهر، مبدأ العلِّيَّة، مبدأ الهُوِّيَّة، مفهوم خلود النفس، ومفهوم الأخلاق.

1. الإدراك:

يُعتَبر الإدراك (Perception) من أهمِّ المصطَلحات التي ارتكزت عليها فلسفة ديفيد هيوم. وبحسب الباحثين، هو المصطلح الأكثر عموميَّة لأيِّ مضمون من المضامين.

يقسِّم هيوم الإدراكات إلى انطباعات (impressions)، وأفكار (ideas).

(1) باحث في الفلسفة السياسيَّة والميديا المعاصرة، من لبنان.

فالانطباع عنده يُطلَق على أيِّ إحساس، أو عاطفة، أو انفعال عندما يظهر للمرَّة الأولى في أذهاننا. أمَّا الفكرة فهي نسخة باهتة من الانطباع. ولا تختلف الفكرة البسيطة عن الانطباع البسيط؛ إلَّا في ظهورها المتأخِّر، وفي كونها خافتة بصورة أكبر، في حالة أفكار التذكُّر، وأكثر خفوتًا في حالة أفكار التخيُّل. فانظر إلى لون أو اسمع صوتًا، تجد أنَّ إدراكك هو عبارة عن انطباع بسيط؛ لكنْ إذا استرجعت هذا اللَّون أو الصَّوت في ما بعد، ستجد أنَّ إدراكك هو عبارة عن فكرة تشبه تمامًا الانطباع الأصليَّ، غير أنَّها أقلَّ وضوحًا. وتخيَّل لونًا أو صوتًا مشابهين، فستجد أنَّ فكرتك لا تزال واضحة، ولكنْ بصورة أقلّ. مع الإشارة -هنا- إلى أنَّ هذا الفيلسوف يستخدم لفظ "بسيط"، و"مركَّب" و"إحساس" و"تأمُّل" بالطريقة نفسها المُستخدَمة لدى كلٍّ من لوك وبركلي[1].

ويلاحظ الباحثون في فلسفة هيوم أنَّ أيَّ فكرة مركَّبة من الإحساس أو التأمُّل ليس من المحتَّم أن تكون نسخة من انطباع مركَّب. فقول القائل لقد شاهدت باريس؛ يعني أنَّه أدرك انطباعًا أكثر أو أقلَّ صحَّة عن هذه المدينة، ولديه أيضًا انطباعات مركَّبة عن الذَّهب والياقوت، ومن ثمَّ يستطيع أن يُكوِّن فكرة مركَّبة عن مدينة أورشليم الجديدة، التي رُصفت شوارعها بالذَّهب، وصُنِّعت بواباتها من الياقوت، على الرغم من أنَّه لم يكن لديه أبدًا أيُّ فكرة عن مدينة كهذه. وبمعنى آخر، يمكننا أن نُكوِّن أفكارًا مركَّبة عن طريق مجهودات الخيال أو أخطاء الذاكرة، وهي أفكار -عندما تتجمَّع- لا تكون نُسخًا من انطباعات مركَّبة. بيد أنّنا في كلِّ فكرة مركَّبة من هذا القبيل، نجد أنَّ كلَّ التفصيلات المتنوِّعة التي تتألَّف منها هي نُسخ من أفكار بسيطة سبق أنْ أدركناها. أمَّا الاستثناء الوحيد الذي سمح به هيوم فهو أنَّ شخصًا لم يدرك على الإطلاق درجة من درجات اللَّون،

(1) انظر: رايت، وليم كلي: تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة: محمود سيِّد أحمد، تقديم ومراجعة: إمام عبد الفتاح إمام، بيروت، دار التنوير، 2010م، ص207.

أو لونًا؛ ولنقل اللَّون الأزرق، لكنَّه رأى أمامه كلَّ درجاته الأخرى مرتَّبة، يستطيع أن يكوِّن عن طريق مجهود الخيال فكرة بسيطة عن الدرجات المتداخلة. مع ذلك، فإنَّ هذا الاستثناء العجيب ليس نتيجة كافية لإبطال المبدأ العامِّ الذي يقول إنَّ أحدًا لا يستطيع تكوين فكرة بسيطة لم يكن لديه من قبل الانطباع المناظر لها، ولا يستطيع أن يكوِّن فكرة مركَّبة؛ ما لم يكن لديه من قبل انطباعات بسيطة تناظر تفصيلاتها التي تتكوَّن منها. كما أنَّ الإنسان الذي كان طوال حياته أعمى لا يمكنه أن يُكوِّن فكرة عن لون ما؛ كاللَّون القرمزيِّ، مثلًا، فإذا قال إنَّ "اللَّون القرمزيَّ يشبه صوت البرق"، وإذا ما كنّا؛ بمعنى ما، على استعداد للتَّسليم بوجود تشابه معيَّن بينهما، فإنَّ الفكرة البسيطة عن اللَّون القرمزيِّ ليست هي الفكرة البسيطة عن صوت البرق. وقد تصبح فكرة ما في ظروف غير عاديَّة واضحة؛ لدرجة أنَّها تختلط بالانطباع[1].

وخلاصة القول: أنَّ التمييز الأساس بين الانطباعات والأفكار يكمُن في أنَّ الأولى تظهر في الوعي أوّلًا، والثانية هي نسخ منها؛ فكلُّ معرفة مستمدَّة من انطباعات. وطريقة تحديد صدق أيِّ فكرة بسيطة أو مركَّبة هي تعقُّب مصدرها إلى الانطباع أو الانطباعات التي أتت منها.

2. فلسفة الشكْ:

يُعدُّ الشكُّ والشكّيَّة (Skepticism) من المفاهيم التي رافقت مسيرة هيوم الفلسفيَّة في حياته وبعد مماته. هذا المفهوم من العلامات الفارقة لنظامه الفكريِّ؛ على الرغم من أنَّ كثيرًا من الفلاسفة الذين سبقوه كانوا ينتسبون بهذا القدر أو ذاك إلى المذهب الشكِّيْ، وهو مذهبٌ فلسفيٌّ يضع إمكان المعرفة الموضوعيَّة للواقع موضع تساؤل، ويُعبَّر عن الشكِّ في كفاية الحواسِّ والعقل لبلوغ اليقين في طبيعة الأشياء. وكما سبق وأشرنا،

(1) انظر: رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، م.س، ص211.

فإنَّ هذا المذهب يعود بجذوره إلى ما قبل سقراط. كما أنَّ ثمّة إرهاصاتٍ شكِّيَّةً عند هيراقليطس، وزينوفان، وبروتاغوراس. غير أنَّ الشكِّيَّة؛ بوصفها منهجًا، لم تبدأ إلَّا في أكاديميَّة أفلاطون؛ انطلاقاً من أرقاسيلاوسوكاردنياس، حيث رفع فلاسفة الأكاديميَّة شعار سقراط "إنَّ كلَّ ما أعرفه هو أنَّني لا أعرف شيئًا"[1]. وبعد ذلك انتقلت من الأكاديميَّة إلى المدرسة البيرونيَّة في العصر الروماني، وبلغت ذروتها في تعاليم الشّكَّاك الأوّل بيرون، وتلميذه تيمون، وواصلها أينسيديموس الاسكندريُّ الذي ميّز بين الشكِّ الأكاديميِّ والشكِّ البيرونيْ. كان هؤلاء الشُكَّاك، وهم ينتهجون نهج السفسطائيَّة، يوجِّهون الانتباه إلى نسبيَّة المعرفة الإنسانيَّة، واستحالة البرهنة عليها بشكل صُوَريٍّ، واعتمادها على الظروف المختلفة؛ أي ظروف المعيشة، وحالة أعضاء الحسِّ، وتأثير التقاليد والعادات، إلى درجة أصبح الشكُّ معها نوعًا من استحالة وجود أيِّ معرفة مُدرَكة. وقد دعا قدماء الشُكَّاك في العهد القديم إلى طمأنينة النفس، ومن ثمَّ تحقيق السعادة؛ بوصفها هدف الفلسفة، غير أنَّهم لم يمتنعوا إطلاقًا عن إصدار الأحكام، حين كتبوا أعمالاً تنتقد العقائد والمذاهب الفلسفيَّة القطعيَّة التأمُّليَّة، وأوردوا حججًا كثيرة لتأييد النزعة الشكِّيَّة، كما كانت هناك محاولات اتِّجاهات شكِّيَّة مختلفة في الفلسفة في القرنين السابع عشر والثامن عشر أدَّت دورًا مهمًّا في دحض العقائد القطعيَّة الخاصَّة بالإيديولوجيا في القرون الوسطى. وقد وضعت أعمال "مونتاني"، و"بايل"، و"هيوم"، وسواهم، المنظومة اللَّاهوتيَّة المسيحيَّة موضع التساؤل، ثمَّ لتمهِّد السبل لاعتناق المادّيَّة، من جهة، وحدَّت الشكِّيَّة عند "باسكال"، و"هيوم"، و"كانط"، كثيرًا من إمكانيَّات العقل وتعطيل دوره؛ بصفة عامَّة، فمهَّدت الطريق للإيمان الدينيْ[2].

لقد سيطرت هاتان المدرستان على الفكر الشكِّيِّ الفلسفيِّ حتّى العصر

(1) ستيس، ولتر: تاريخ الفلسفة اليونانيَّة، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، بيروت، المؤسَّسة الجامعيَّة للدراسات والنشر، 2004م، ص35.

(2) انظر: ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانيَّة، م.س، ص37.

الحديث، إذ اعتنقت الفلسفة الوضعيَّة الحجج التقليديَّة في النزعة الشكِّيَّة واستغلَّتها لمصلحتها. فالوضعيَّة تعدُّ جميع الأحكام والتعميمات والفروض، غير مجدية إذا تعذَّر اختبارها. وقد قصرت البراغماتيَّة [الذرائعيَّة] المعرفة على الفروض التي تأكَّد صدقُها تجريبيًّا. وكذلك ادَّعت التجريبيَّة مع "ستيورات مل" و"هيوم"، أنَّها لم تعثر على أيِّ وسيلة لتحصيل أيِّ نوع من المعرفة اليقينيَّة يمكن أن يتجاوز عالم التجربة والظواهر؛ إلَّا في المصطلحات المنطقيَّة والرياضيَّات.

وفي الفصل الرابع من كتابه "تحقيق في الذِّهن البشريْ" تبنّى هيوم نهجًا شكّيًّا على صعيد الشكوك التي تكتنف أداء الذِّهن البشريِّ، وسلَّط الضَّوء عليها ابتداءً من بيان السبب الذي يمنح الإنسان جرأةً في إصدار أحكامٍ تتعدَّى نطاق إدراكاته الحسِّيَّة ومخزونه الذِّهنيْ. ومن جملة معتقداته: أنَّ جميع الاستدلالات التي تُساق حول الأمر الواقع تتقوَّم في أساسها على العلاقة الكائنة بين العلَّة والمعلول، لذا من دون هذه العلاقة لا نتمكَّن من السير قُدُمًا إلى نطاقٍ يتعدَّى حدود الإدراك الذِّهنيِّ والمعلومات المتحصِّلة من حواسِّنا[1]. وهو لم يوضّح كيف توصَّل إلى هذه النتيجة التي تتضَّمن حكمًا كلِّيًّا، لكنّه مع ذلك ساق البحث نحو بيان كيفيَّة تحقُّق الحكم بالعلِّيَّة من خلال بيان كيفيَّة نشأته، وممَّا قاله في هذا المجال: "لا يمكن للذِّهن مُطلَقًا افتراض معلولٍ لإحدى العلل... وذلك لأنَّ المعلول بصورته العامَّة يختلف عن علَّته، وتأسيسًا على هذا لا يمكن أن يُستكشف في علَّته".

وحين نعجز عن استكشاف أساس العلاقة من خلال الاستقصاء العقليِّ في آثار الأشياء وخصائصها، فمن الأَولى في هذه الحالة الإقرار بعجزنا عن إثبات ضرورةٍ تحقُّق هذه العلاقة، وحسب اعتقاد هيوم فإنَّ ترجيح السلوك

(1) انظر: هيوم، ديفيد: تحقيق في الذهن البشريّ، ترجمة: محمد محجوب، ط1، بيروت، المنظَّمة العربيَّة للترجمة، 2008م، ص109.

الخاصِّ لأحد الأشياء في مجال تفاعله مع سائر الأشياء يُعدُّ ترجيحًا بلا مرجِّح. وفي موضعٍ آخر، تحدَّث عن الانفصال الحاصل بين العلَّة والمعلول، لكنَّه لم يتحدَّث عن الاختلاف التامِّ بينهما، حيث أكَّد على أنَّ كلَّ معلولٍ يمثِّل حدثًا (event) منفصلًا عن علَّته، لذا لا يمكننا استكشافه في علَّته نفسها[1].

وتجدر الإشارة -هنا- إلى أنّ هذا الفيلسوف الغربيَّ أعرب بصراحةٍ عن يأسه من إيجاد حلٍّ لما ذُكِر، ومن البديهيِّ أنَّ يأسه هذا يضرب بجذوره في واقع رؤيته الخاصَّة بالنسبة إلى القابليَّات الفكريَّة الإنسانيَّة. وبعدما طرح شكوكه، حاول فكَّ رموزها على ضوء مذهبه الشكّيِّ، باقتراحه بشكلٍ صريح تبنِّي نهج فلسفيٍّ شكّيٍّ أو أكاديميٍّ[2]، حيث أكَّد أنَّ الشريحة الفكريَّة الأكاديميَّة تحرَّرت من القيود الدقيقة للتحرِّيَّات الذِّهنيَّة، ورفضت جميع وجهات النظر الخارجة عن نطاق الحياة والتجارب العمليَّة المتعارَفة، وكمثالٍ على الفلسفة الشكِّيَّة نشير إلى ما ذكره عن العادة أو الطبع البشريِّ، إذ ادَّعى أنَّ كلَّ استدلالٍ يبدأ من التجربة، فيه خطوةٌ لا بدَّ للذِّهن من أن يتَّخذها، لكنَّها في الحين ذاته غير مدعومةٍ من أيِّ دليل أو نشاطٍ عقليٍّ، فالإنسان بطبعه يتجاوز إطار شهادة الحواسِّ ومدَّخراته الذِّهنيَّة، والطبع في الواقع عبارةٌ عن رغبةٍ. وهو في هذا الإطار، أقرّ بأنّه لا يقصد معرفة سبب إيداع هذه الرغبة في النفس الإنسانيَّة. وقد أكَّد هيوم على أنَّ كلّ عقيدةٍ نمتلكها بالنسبة إلى موضوعٍ واقعيٍّ أو وجودٍ حقيقيٍّ، لا بدَّ من أن تكون منبثقةً من طبعنا وعادتنا في ملاحظة إحدى العلاقات، فالعقيدة هي في الواقع واحدةٌ من نشاطات الروح (soul) التي تنشأ على ضوء طبعنا، ووصف هذه الحالة بأنَّها من جملة القابليَّات الذاتيَّة -الغرائز الطبيعيَّة- لدى الإنسان، وهي حالةٌ لا يمكن تحقُّقها أو الحؤول دون وقوعها من طريق أيِّ استدلالٍ عقليٍّ أو أيِّ عمليَّةٍ ذهنيَّةٍ.

(1) انظر: هيوم، تحقيق في الذهن البشريّ، م.س، ص111.
(2) انظر: م.ن، ص112.

3. الفاعليَّة:

يتَّسم هذا المفهوم عند هيوم بصعوبة تتمثَّل في قراءتنا له، من دون الانتباه إلى مرجعيَّته الفلسفيَّة والعلميَّة التاريخيَّة الحقيقيَّة، فمن الخطأ قراءته، ضمن كامل مدوَّنة هيوم، في سياق الطاقة الحديثة. من بعض النواحي، يُعتبر مفهوم Energy أكثر قربًا إلىEnergeia الأرسطيَّة؛ منه إلى الطاقة الحديثة، فهيوم يورده في سياق الجمع بين مفهومَيْ التأثير (Power) والفاعليَّة، وضمن تحليل مثال إمرة الإرادة على الجوارح. وفي هذا السياق، تبدو الفاعليَّة فكرة غامضة ميتافيزيقيَّة، وضربًا من العلاقة المفتَرضة، رابطة تحمل السبب إلى مفعوله. وهنا يقول هيوم: "بعض الفلاسفة الذين يجوسون إلى أبعد من ذلك بقليل، يدركون للتوِّ أنَّ فاعليَّة السبب حتّى في أقرب ما اعتدنا من الأحداث تظلُّ مستغلَقة علينا استغلاقَها في الأحداث غير المعتادة، وأنَّنا لا نتعلَّم إلَّا من التجربة تواتر اقتران الموضوعات، من دون أن نقدر على فهم أيِّ شيء من قبيل الارتباط بينها"[1].

4. التجربة:

نستنتج من مجال التجربة في فلسفة هيوم وجود موضوع ما من وجود موضوع آخر. وهو يصفه بأنَّه أنطولوجيا مجال الوجود، كما أنَّه في المقابل أبستيمولوجيا مجال الإدراكات الذِّهنيَّة التي تُحيل على ضرب من اليقين من الوجود، أو من الاعتقاد فيه؛ سواء عبر حدَّة الانطباع الذي يحسُّ به، أم عبر عدوى تلك الحدَّة التي ينفثها الانطباع في الفكرة المقارنة التي يُحيل الانطباع عليها. لذلك يصرِّح هيوم في الرسالة قائلًا: "إنَّما بالتجربة فحسب نستطيع أن نستنتج الوجود العينيَّ لموضوع ما من الوجود العينيِّ لموضوع آخـر"[2]. ومن جهة أخرى، تُعتبر التجربة أساس الاستدلالات المتَّصلة بالعلاقات السببيَّة. لذلك يقول هيوم: "فعندما يُسأل: ما طبيعة

(1) هيوم، تحقيق في الذِّهن البشريْ، م.س، الفصل السابع، ص216.
(2) م.ن، ص218.

جميع استدلالاتنا يخصُّ أمور الوقائع؟ يبدو الجواب المناسب أنَّها قائمة على علاقة السبب والمفعول. وإذا ما سُئل من جديد: ما أساس جميع استدلالاتنا واستنتاجاتنا في ما يخصُّ هذه العلاقة؟ جاز أن يكون الجواب في كلمة واحدة: التجربة"[1].

5. الاعتقاد:

الاعتقاد هو تصوُّر لموضوع ما. ولكنّ هذا التصوُّر ينتمي إلى دائرة التوهُّم والخيال. وما يميِّزه عنها أنَّه أشدُّ حدَّة، وحيويَّة، وقوَّة، وصلابة، وثباتًا. فالتصوُّر الاعتقاديُّ يقرّب بموضوعاته من حضور الانطباع، وهو لذلك يتمثَّل في كيفيَّة تصوُّرها، وفي شعور الذِّهن بها. أمَّا الاعتقاد فيضرب حدَّة الشعور بحضور الانطباع أو بقرب حضوره؛ وذلك بالمقارنة مع قوَّة ذلك الشعور [اللَّامبالي أو المحايد] الذي يصاحب موضوعات المخيّلة. من هنا، فإنَّ الاعتقاد حالة من حالات التَّداعي بين الانطباع والفكرة، ينقل ضمنه الانطباع، لدى حضوره في الذِّهن، شيئًا من حيويَّته وحدَّته الإحساسيَّة إلى الفكرة التي تتداعى له.

6. الذاكرة والخيال:

يرى هيوم أنّ هناك اختلافًا بين الذاكرة والخيال؛ وذلك من زاويتين:

الأولى: أنَّ أفكار الذاكرة تكون عادة أكثر حيويَّة، ومقيَّدة بالنظام والشكل نفسه؛ مثل: الانطباعات الأصليَّة.

الثانية: أنَّ أفكار الخيال تكون أكثر خُفوتًا، وكثيرًا ما تحيد عن النظام وشكل الانطباعات التي استُمدَّت منها.

وهكذا، فإنَّ كلَّ الأفكار البسيطة قد تنفصل عن طريق الخيال وتتَّحد مرَّة

(1) هيوم، تحقيق في الذِّهن البشريْ، م.س، ص220.

أخرى في أشكال أخرى؛ ويتمُّ ذلك من طريق تداعي الأفكار (association of ideas)، وفقًا لمبدأ من هذه المبادئ الثلاثة: مبدأ التشابه (Resemblance) بين الأفكار المتداعية (ويُعرف هذا المبدأ في علم النفس بالتَّداعي عن طريق التَّشابه)، ومبدأ اتِّصال (Continuity) الأفكار في الزمان والمكان (أي مبدأ التَّداعي عن طريق الاتِّصال)، ومبدأ علاقة العلَّة والمعلول (Cause and effect) (فعندما أفكِّر في شخص ما، فربَّما أفكِّر بعد ذلك في شخص آخر يشبهه في المظهر، أو في شخص قابلته في الوقت نفسه وفي المكان ذاته، أو في والده الذي يدين له بوجوده). والعلِّيَّة هي العلاقة الأكثر اتّساعًا من العلاقات الثلاث السابقة، وتقوم عليها المعرفة العلميَّة. فعندما نفكِّر في موضوعين؛ مثل: النار والحرارة، على أنّهما يرتبطان في هذه العلاقة، فإنَّنا نفترض أنَّ الأوَّل الذي نطلق عليه اسم العلَّة ينتج حركة ما أو فعلًا ما يؤثّر على المعلول، أو تكون لديه القدرة على أن يفعل ذلك. وهذه العلاقات الثلاث: التَّشابه، والاتِّصال، والعلِّيَّة، علاقات طبيعيَّة يسير فيها الذِّهن في عمليَّة تداعي الأفكار[1].

إلى ذلك، يستطيع الذهن - بمبادئه الخاصَّة- أن يقارن بين أفكاره بطرق أربع إضافيَّة، ويجد، أو يتخيَّل أنَّه يجد، علاقات بينها. ولذلك، توجد أنواع عدَّة من العلاقات الفلسفيّة؛ هي:

- التشابه بين فكرتين.

- الهويَّة (identity)، عندما تتوحَّد الأفكار التي نستقبلها في وقت ما مع تلك الأفكار التي نستقبلها في وقت آخر، من حيث إنَّها خصائص لموضوع دائم. ويقدّم لنا المكان والزمان عددًا لا حدَّ له من المقارنات؛ مثل: "بعيد"، و"مجاور"، و"فوق"، و"تحت"، و"قبل"، و"بعد".

(1) انظر: رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، م.س، ص209.

- علاقة الكمِّ والعدد التي أدَّت إلى نشأة الرياضيَّات.

- علاقة درجات الكيف؛ كما في الأثقال، ودرجات اللون، ...

- علاقة التضادْ، كما هي الحال عندما نفترض أنَّ فكرة ما موجودة أو غير موجودة.

- علاقة العلَّة والمعلول.

ويمكن أن يوجد تبرير لجميع تلك العلاقات الفلسفيَّة عندما نلاحظ انطباعات الإحساس المباشرة، ما عدا علاقتَيْ الهويَّة، والعلَّة والمعلول اللَّتين وجد هيوم، كما سنرى، أنَّهما أكثر صعوبة، وتثيران مشكلات[1].

7. مقولة الجواهر:

يؤيِّد هيوم رفض باركلي لكلِّ الأفكار المجرَّدة؛ بما فيها أفكار الجوهر المادِّيْ. فإذا كان الجوهر فكرة أصيلة، فيجب أن يُستمدَّ؛ إمَّا من انطباعات الإحساس وإمّا من التأمُّل. فإذا كان مُستمَدًّا من الإحساس، فلا بدَّ من أن يكون من إحساس معيَّن، فإذا أدركته العينان سيكون لونًا، وإذا أدركته الأذنان سيكون صوتًا، وإذا أدركه اللِّسان سيكون طعمًا، وهكذا الأمر بالنسبة إلى جميع الحواسِّ الأخرى. ومن الواضح أنَّ الجوهر ليس واحدًا من تلك الأحاسيس. وتنحلّ انطباعات التأمُّل بذاتها إلى عواطفنا وانفعالاتنا، ولا يستطيع أيٌّ منها أن يمثِّل الجوهر بأيِّ وجه من الوجوه. ولا تختلف فكرة الجوهر عن فكرة الحال (Mode)؛ بقدر ما يذهب إليه المباشر من انطباعاتنا، فكلتاهما تجمُّعات من أفكار بسيطة مرتبطة باستمرار، نعطيها أسماء لكي نستدعيها كما نشاء. وليس هناك مبرِّر لردِّ هذه الأفكار التي ترتبط في ما نسمِّيه بالجوهر، كما فعل لوك، إلى حامل يكمن وراءها ويكون أساسًا لها ولا يدركه أحد، ولا يكون لدينا عنه انطباع على الإطلاق؛

(1) انظر: رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، م.س، ص210.

سواء عن إحساس أم عن تأمُّل. ولذلك، فليس لدينا، في رأي هيوم، كما هي الحال بالنسبة إلى باركلي، دليل على وجود المادَّة، وهو لم يعترف بمشروعيَّة ما سمَّاه الأخير بـ"الأفكار" (Notions). فالمعرفة كلُّها عنده تتكوَّن من "إدراكات"، أي ممَّا أطلق عليه بركلي اسم "الصور". ونتيجة لذلك، يرفض ادّعاء الأخير أنَّ لدينا "صورة" عن جوهر روحيٍّ أو الذات.

لقد تخيَّل بعض الفلاسفة، كما يلاحظ هيوم (ربَّما يقصد لوك وباركلي) أنَّنا نعي كلَّ لحظة ما نسمِّيه ذاتنا، بينما تبقى هي ثابتة وبسيطة طوال حياتنا. لكن، من أيِّ انطباع يمكن أن تُستمَدَّ تلك الفكرة؟ ما هو الانطباع الذي يبقى هو نفسه طوال حياتنا؟ يقول هيوم: "من جانبي، كلَّما توغَّلتُ داخل ما أسمِّيه "نفسي"، أعثر باستمرار على هذا الإدراك الجزئيِّ أو ذاك، عن الحرارة، أو البرودة، عن النور أو الظلمة، عن الحبِّ أو الكراهية، عن الألم أو اللَّذَّة. إنَّني لا أستطيع على الإطلاق أن أمسك بهذه النفس في أيِّ وقت من دون إدراك، ولا أستطيع على الإطلاق أن ألاحظ شيئًا سوى الإدراك"[1]. وينجم عن ذلك أنّ ذواتنا ليست "شيئًا سوى حزمة أو تجمُّع من إدراكات مختلفة، يعقب بعضها بعضًا بسرعة لا يمكن تصوُّرها، وتكون في تدفُّق وحركة مستمرَّة. ولا تستطيع أعيُننا أن تستدير في محاجرها من دون تغيُّر إدراكاتنا. ويكون تفكيرنا أكثر تغيُّرًا من إبصارنا، وتساهم كلُّ حواسِّنا وملكاتنا الأخرى في هذا التغيُّر؛ وليست هناك قوَّة واحدة من قوى النفس تظلُّ بلا تغيير ولو للحظة واحدة. إنَّ الذِّهن نوع من المسرح، تتابع في الظهور عليه إدراكات متعدِّدة بصورة متعاقبة؛ أعني أنَّها تمرُّ، وتمرُّ مرَّة ثانية، وتزول بسرعة خاطفة، وتختلط في تنوُّع لامتناهٍ من الاتِّجاهات والمواقف... ويجب ألَّا تضلِّلنا مقارنة المسرح. إذ أنّ الإدراكات المتعاقبة وحدها هي التي تؤلِّف الذِّهن؛ وليس لدينا فكرة

(1) Hume David, An Enquiry Concerning Human Understanding and Concerning the Principles of Morals, Selby-Bigge an Nadditch (des) Oxford University pres, 1989, p. 25.

عن المكان، الذي تُعرض فيه هذه المناظر، ولا عن المواد التي تتكوّن منها[1].

8. مبدأ العِلِّيَّة:

اعتقد لوك، كما رأينا من قبل، أنَّنا نستطيع أن نبرهن على وجود ذواتنا ووجود الله وحقائق الرياضيَّات والأخلاق، بيقين مطلَق من طريق منهجَيْ الحدسِ والبرهان. أمَّا عند هيوم، فيمكن البرهنة على مبادئ الرياضيَّات فحسب بتلك الطريقة. فالوضوح والتميُّز هما معيار الصدق، لأنَّ عكس أيِّ قضيّة صادقة سيكون تناقضًا منطقيًّا، مختلطًا وغير معقول، كما لو أنَّ شخصًا يقول إنَّ الجذر التكعيبيَّ للعدد 64 يساوي نصف 10[2]. وفي ما يتعلَّق بأمور الواقع؛ كالوقائع الجزئيَّة في موضوعات؛ مثل: التاريخ، والتسلسل الزمنيِّ للأحداث، والجغرافيا، والفلك، والحقائق العامَّة في علم السياسة، والأخلاق، والفيزياء، والكيمياء، فإنَّ عكس أيِّ قضيَّة لا يتضمَّن تناقضًا منطقيًّا. فليس هناك تناقضٌ منطقيٌّ في القول أنَّ سقوط حصاة صغيرة يمكن أن يطفىء نور الشمس، أو أنَّ رغبة شخص ما يمكن أن تضبط حركة الكواكب في مداراتها. لا نستطيع أن نصل إلى معرفة المبادئ في مجال كلِّ مسائل الواقع؛ إلَّا من طريق ملاحظة العلل والمعلولات.

ولا شكّ في أنَّ هيوم يؤمن بأهمّيَّة الملاحظات التجريبيَّة التي يرتكز فيها البرهان على علاقات علِّيَّة. وكثيرًا ما كان يُعتقد -في الوقت نفسه- أنَّ تحليله لمبدأ العلِّيَّة يقوِّض مشروعيَّته، وتلك خاصِّيَّة من خصائص فلسفته التي صدمت كانط تمامًا؛ معتبرًا أنَّه شرع في بناء نسق جديد للأبستيمولوجيا، كان من أهدافه الأساسيَّة البرهنة على صحَّة التحليل العلِّيْ.

(1) Ipid, p. 43- 44.

(2) انظر: رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، م.س، ص212.

وهناك جانبان مختلفان لمعالجة هيوم للعِلِّيَّة لا بدَّ من التمييز بينهما، ومن الملائم بالنسبة إلينا أن نسمِّيهما على التوالي: المنظور المنطقيَّ، والمنظور السيكولوجيَّ للمشكلة.

يمكن أن نعبِّر عن المنظور المنطقيِّ بتعريف هيوم المحيِّر للعلَّة بأنّها: "موضوع يسبق موضوعًا آخر ومجاور له، وحيث توضع كلُّ الموضوعات التي تشبه الموضوع الأوَّل في علاقتَيْ الأسبقيَّة والجوار لتلك الموضوعات التي تشبه الموضوع الثاني". وإذا شرحنا عبارته بحرّيَّة قلنا إنَّ ما يقصده يمكن أنْ يكون على النحو التالي: لنفترض أنَّه في جميع الحالات التي نستطيع أن نلاحظ فيها موضوعًا معيَّنًا أو حدثًا وليكن (أ)، يتبعه باستمرار موضوع آخر أو حدث وليكن (ب)، وأنَّه في جميع الحالات التي نستطيع فيها أنْ نلاحظ (ب) نجد أنَّ (أ) يسبقه على الدوام، فإنَّنا نستطيع استنتاج أنَّ (أ) هو علَّة (ب)، وأنَّ (ب) تتبعه باستمرار في الحالات المستقبليَّة. هكذا نكون على يقين من هذه النتيجة من الناحية العمليَّة، على الرغم من أنَّنا لا نستطيع أن نبرهن عليها بطريقة رياضيَّة. لكنْ لنفترض، من ناحية أخرى، أنّ (جـ) تتبع (د) بنسبة مئويَّة معيَّنة من الحالات، وليس في جميع الحالات، فإنَّنا نستطيع أن نحسب نسبة الاحتمال التي تثبت النتيجة بأنَّها صادقة في أيِّ ظرف من ظروف المستقبل.

لقد شرع هيوم في بناء ما يزال أساسه ناقصًا (على الرغم من أنَّه حقَّق تقدُّمًا يفوق بيكون ولوك)، لمبادئ المنطق الاستقرائيِّ الذي كان على "جون ستيوارت مل" أنْ يصوغه بدقَّة أكثر في القرن التاسع عشر. وقد قبل مبدأ العِلِّيَّة، واطِّراد الطبيعة، واستخدمها بطريقة متنوِّعة؛ مثل تفسيره السيكولوجيِّ لاعتقادنا في الهويَّة الشخصيَّة، وفي هويَّة الموضوعات الفيزيائيَّة، وفي نظريَّته الخاصَّة بالإرادة، وفي رفضه للمعتقدات اللَّاهوتيَّة في المعجزات والعناية الإلهيَّة الخاصَّة. وربَّما يكون التفسير الأكثر معقوليَّة لمنظوره المنطقيِّ هو أنَّه ينظر إلى العلِّيَّة واطِّراد الطبيعة على أنّهما

مسلَّمتان لا يمكن أن نبرهن عليهما، غير أنَّهما مفيدتان للغاية، ولا يمكن، في الواقع، الاستغناء عنهما، بالنسبة إلى التوجيه العمليِّ للحياة وسير كلِّ بحث علميٍّ خارج الرياضيَّات[1].

أمّا منظور هيوم السيكولوجيِّ للعلِّيَّة فهو مشهور وأصيل أكثر من منظوره المنطقيْ، على الرَّغم من أنَّه - في واقع الأمر- ذو أهميَّة فلسفيَّة أقلْ. إذ يقوم بتحليل علاقة العلَّة والمعلول الفلسفيَّة إلى ثلاثة عناصر؛ هي: التجاور، والتتابع، والارتباط الضروريْ. أمّا بالنسبة إلى التجاور والتتابع؛ فإنَّهما علاقتان توجدان بصورة مباشرة بين انطباعاتنا، ولا شكَّ في أصالتهما؛ بوصفهما معطيات في تجربتنا. ومع ذلك، فهما بذاتهما لا تكفيان لأنْ تؤدِّيا بنا إلى الاعتقاد بأنّ حدثًا ما هو علّة لحدث آخر؛ إذ يجب علينا أن نفترض وجود ارتباط ضروريٍّ بين الحدثين[2].

9. مبدأ الهُوِّيَّة:

يفسِّر هيوم اعتقادنا في الهويَّة ووجود الموضوعات الخارجيَّة المتَّصل تفسيرًا سيكولوجيًّا، وكذلك اعتقادنا في الهويَّة الشخصيَّة لذواتنا الخاصَّة. والسبب الذي يجعلنا نعتقد في الحقيقة الموضوعيَّة للانطباعات الحاليَّة بوجه عامٍّ هو أنَّها أكثر وضوحًا من الأفكار. ونحن نقبل أفكارنا الخاصَّة بالذَّاكرة؛ بوصفها استعادة حقيقيَّة لانطباعات خبرناها في الماضي؛ لأنَّها أكثر حيويَّة من أفكار الخيال الأكثر خُفوتًا والأقلِّ تماسكًا[3] من هنا، فإنَّ أيَّ انطباع لديه القدرة على أن ينقل الحيويَّة إلى الفكرة التي ترتبط به ارتباطًا وثيقًا. وتصبح الفكرة -عندئذٍ - أكثر حيويَّة، وقد يُعتقد أنَّها صادقة. فعندما نعود إلى المنزل من رحلة، فإنَّ الموضوعات التي نراها الآن؛ من حيث إنَّها انطباعات حاليَّة تجعل أفكارنا الموجودة في الذَّاكرة والخيال عن الناس

(1) انظر: رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، م.س، ص214.
(2) انظر: م.ن، ص.ن.
(3) انظر: م.ن، ص.ن.

والأشياء في المنزل أكثر حيويَّة. وصورة الصديق تجعل الخصائص التي نتذكَّرها عنه أكثر حيويَّة. ورفات القدِّيسين التي نراها رأي العين تجعل الفكرة التي قِيلت عنهم أكثر حيويّة، ويكون أكثر استعدادًا للإيمان بهم. (ولو أنَّ هيوم عرف سيكولوجيا الإعلان وفنَّ البيع الحديث، لربَّما أضاف القول بأنَّه إذا استطاع المشتري أن يتخيَّل بحيويَّة كافية فوائد شيء معروض للبيع، فإنَّه يؤمن بأنَّ هذه الفوائد المتخيَّلة حقيقيَّة، ويشتري السلعة. وإذا كانت الفوائد الموجودة في خيال شخص ما والتي قِيلت له عن المضاربة في البورصة، حيويَّة وجذَّابة بصورة كافية، فمن المحتمل أن يكون لديه إيمان ضمنيٌّ بقوَّة الاستثمار. وذلك هو سبب نجاح الناس موضع الثِّقة).

من خلال طريق هذا التحليل الصارم لما نخبره بالفعل في إدراكاتنا، يعتقد هيوم أنَّه نجح في اكتشاف أنَّ كلَّ ما نعرفه بصورة مباشرة هو إدراكاتنا ذاتها، وليست لدينا معرفة بطبيعة الموضوعات أو بوجودها المتَّصل في العالم الخارجيِّ، أو بهويَّتنا الشخصيَّة؛ من حيث إنَّها ذوات. ليست لدينا طريقة أيًّا تكن لاكتشاف "العلل المجهولة" لما تنشأ منه انطباعاتنا. من هنا، فإنَّ فلسفته تستبعد على السواء مادّيَّة هُوبز، وثنائيَّة ديكارت ولُوك، ومذهب الذِّهن عند باركلي. فكلُّ ما نعرفه هو إدراكاتنا، أمَّا ما يوجد أكثر من ذلك في عالم الواقع، فليست لدينا طريقة لنعرف شيئًا عن طبيعة المادَّة أو طبيعة الذِّهن. لقد كان هيوم مبشِّرًا بالفلاسفة الوضعيِّين في القرن التاسع عشر؛ مثل: كونت، وجون ستيوارت مل، وبالفلاسفة اللَّاأدريِّين؛ مثل: سنبسر، وهكسلي. وهو يطلق على وجهة نظره اسم النزعة الشكِّيَّة (Skepticism).

10. مفهوم خلود النفس:

تتجلَّى تأمُّلات هيوم في طبيعة الكون وعلاقاته بالله بصورة أساسيَّة في كتابه "محاورات في الدين الطبيعيْ" الذي قدَّم كلَّ من تحدَّث فيه (أي

المتحاورين) أنواعًا مختلفة من الاعتبارات الجادَّة، وعرض فيها الصعوبات التي يجب على أيِّ فلسفة من فلسفات الدين أن تحلَّها. ويبدو أنَّه يتأرجح بين رأيين من آراء المتحاورين؛ وهما "كليانتس" و"فيلون"، وأنَّه استخدم حيلة الحوار الأدبيَّة؛ لكي يستطيع التفكير بصوت مسموع في مشكلات الدين، من دون أن يضطرَّ إلى الالتزام بشيء. والانطباع الذي يستمدُّه معظم الطلَّاب من الكتاب هو أنَّ هيوم اعتقد أنَّ وجود الله يؤكِّده ذلك القدر من النظام الذي يمكن اكتشافه في الكون، غير أنَّ الدليل هذا لا يكفي؛ لكي يكفل نتائج كثيرة عن طبيعته وصفاته. كما أنَّه يستبعد المعجزات والعناية الإلهيَّة الخاصَّة. في هذا السياق، يبدو العالم أشبه بالكائن الحيِّ الذي يكون الله هو الروح السارية فيه؛ أكثر من أن يماثل آلة يكون هو صانعها، وهذا افتراض يسبق الكثير من الأفكار في فلسفة الدين التي ظهرت إبَّان القرن التاسع عشر، وأيضًا في عصرنا الراهن[1].

ويصعب أنْ نحدّد ما الذي اعتقده هيوم، بحقٍّ، عن الخلود الشخصيْ؛ إذ يبدأ مقاله في الموضوع بهذه العبارة: "يبدو أنَّه من الصَّعب أن نبرهن على خلود النفس من طريق النور المحض للعقل، فالبراهين عليه مستمدَّة بوجه عامٍّ إمَّا من مباحث ميتافيزيقيَّة، أو أخلاقيَّة، أو فيزيائيَّة. بيد أنَّ الكتاب المقدَّس، في واقع الأمر، هو وحده الذي يكشف عن الحياة والخلود". وينهي مقاله بهذه العبارة: "لا يمكن لشيء أن يضع بوضوح تامٍّ الالتزام اللَّامتناهي للجنس البشريِّ تجاه الوحي الإلهيْ؛ لأنَّنا لا نجد واسطة أخرى يمكن أن تؤكِّد هذه الحقيقة الهامَّة والعظيمة". إنَّ هيكل مقاله هو هجوم ساحق على الحجج التي قُدِّمت للخلود، والتي ترتكز على الاستدلال البشريْ. فهل العبارة الافتتاحيَّة والعبارة التي انتهى بها ساخرتان؟ أم أنَّهما تقرِّران ما شعر به هيوم حقًا؟ فقد كان يقيم في لندن عندما جاءه خبر وفاة والدته.. ووجده مستر بويل، الذي كان يقيم معه في

(1) انظر: رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، م.س، ص215.

المنزل نفسه، "في كرب عميق، ودموعه تتدفَّق بغزارة". قال بويل، بعدما واساه: "صديقي، إنَّ سبب هذا الحزن غير المعتاد هو نبذك لمبادئ الدِّين وطرحها جانبًا؛ لأنَّك لو لم تفعل ذلك، لواساك الإيمان الراسخ الذي يقول إنَّ هذه السيِّدة الطيِّبة التي هي ليست أفضل الأمَّهات فحسب، بل هي أيضًا أكثر المسيحيَّات تقوى، لا بدَّ من أن تكون سعيدة تمامًا في دار العدل"[1]. وأجاب هيوم بقوله: "على الرّغم من أنَّني طرحت تأمُّلاتي لكي أنظر في العالم الميتافيزيقيِّ الذي يحتاج إلى سعة في المعرفة والاطِّلاع، فإنَّني، في أمور أخرى، لا أفكِّر بصورة تختلف عن سائر العالم؛ كما تتخيَّل"[2].

وقعت تلك الحادثة عندما بدأت انتقادات هيوم للدِّين، في كتابه "بحث في الفهم البشريْ"، الذي نُشر حديثًا، تجعله مشهورًا، لكنْ هل كان شغفه بالشهرة الأدبيَّة هو الذي أدَّى به إلى أن يشنَّ هجومًا على المعتقدات الدينيَّة أكثر رعبًا من مشاعره الخاصَّة التي كان لها ما يبرِّرها؟ لا شكَّ في أنَّه رفض دين عصره الضيِّق الأفق، لكن من المحتمل تمامًا أنَّه قَبِل بوجود الله والخلود الشخصيِّ، كما قَبِل بمعتقدات أخرى من معتقدات الدِّين الحرِّ؛ مثل: مسائل الوحي، والاقتناع الداخليْ[3].

إنّ الفيلسوف الذي لا يقبل مبادئ العلم؛ إلَّا على أساس غريزة لا يمكن تفسيرها، قد يتمسَّك بمعتقدات دينيَّة على نحوٍ مماثل، مع أنَّه يصعب النظر إليها من ناحية كونها ترتكز على أيِّ أساس متين.

ونخلص إلى القول: أنَّ هيوم فيلسوفٌ شاكٌّ أساسًا؛ إذ يعتقد أنَّه من المستحيل بالنسبة إلى الفهم البشريِّ اكتشاف طبيعة الأشياء الحقيقيَّة؛ كما توجد في ذاتها مستقلَّة عن التجربة؛ أي، أنَّه فيلسوف شاكٌّ في الميتافيزيقا، وعلى الأقلْ، في الدِّين، بدرجة كبيرة. وهو ليس شاكًّا على

(1) انظر: رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، م.س، ص215.
(2) انظر: ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانيَّة، م.س، ص40.
(3) انظر: م.ن، ص.ن.

الإطلاق في الرياضيَّات، والعلوم الطبيعيَّة، والعلوم الاجتماعيَّة، وأيضًا في الأخلاق؛ كما سنرى في ما بعد..

11. مفهوم الأخلاق:

لم يعتقد هيوم بمبادئ أبديَّة وثابتة للأخلاق يمكن معرفتها من طريق الحدس والبرهان. فالأخلاق تختلف برأيه عن الرياضيَّات من هذه الزاوية. ومع ذلك فإنَّه يعتقد بوجود علم تجريبيٍّ لها، وترتبط معالجته هذه ارتباطًا وثيقًا بالسيكولوجيا الخاصَّة به. ولا ريب في أنَّ من بين انطباعات الفكر عندنا انطباعات عن اللَّذة والألم، تصاحب بصورة مباشرة كلَّ إدراكاتنا الأخرى. وتأتي العواطف والانفعالات في الأهمّيَّة بعد اللَّذات والآلام، وتلي ظهور الأفكار. (لا تختلف الانفعالات Passions عن العواطف Emotions عند هيوم إلَّا في كونها أكثر شدَّة، وهو يستخدم مصطلح "الانفعالات" ليعني ما يتحدَّث عنه علماء النفس اليوم؛ وهو العواطف)، وتنشأ العواطف المباشرة بصورة مباشرة من انطباعات اللَّذة أو الألم؛ مثل: الرَّغبة، والنفور، والحزن، والسرور، والأمل، والخوف، واليأس. أمَّا العواطف غير المباشرة فهي أكثر تعقيدًا، وتتضمَّن ارتباط كيفيَّات "صفات" أخرى متنوِّعة؛ مثل: الاعتداد بالذَّات Pride، والضِّعة Humility، والطموح، والزهو، والحبِّ، والكراهية، والحقد، والشَّفقة، والضَّغينة، والكرم. وتحليل هيوم للعواطف كثيرًا ما يكون دقيقًا، إذ قدَّم إسهامات دائمة لما نسمِّيه اليوم بسيكولوجيا العواطف (الانفعالات)[1].

إنَّ الإرادة البشريَّة هي باستمرار محصِّلة الانفعالات والعواطف. ولا يمكن لشيء أن يعارض أو يعوق دافع الانفعال أو العاطفة سوى دافع مضادْ. "والذِّهن ولا ينبغي له أن يكون سوى عبد للعواطف، ولا يمكن أن

(1) Hume David, An Enquiry Concerning Human Understanding and Concerning the Principles of Morals, Selby-Bigge an Nadditch (des) Oxford University pres, 1989, p. 51.

يزعم على الإطلاق أيَّ عمل سوى أن يخدمها ويطيعها". وهناك معنيان فحسب يمكن أن يكون بهما أيُّ فعل غير معقول: أوَّلهما قد يُؤسَّس على وجود مفتَرض لموضوعات لا توجد بالفعل، وثانيهما قد يُستخدَم وسيلة غير فعَّالة من أجل غاية مدبَّرة ومخطَّطة، بسبب الحكم الخاطئ على الأسباب والنتائج.

إنَّ وظيفة الذِّهن في ميدان السلوك هي أن يكون مرشدًا ضدَّ تلك الأخطاء. واختيار الغايات القصوى أو القِيَم النهائيَّة يكون باستمرار من طريق الجانب الانفعاليِّ (العاطفيِّ) من طبيعتنا، ولا يفيد العقل إلَّا في الإشارة إلى طرق تحقيق هذه الغايات (يعتقد كثير من الفلاسفة المُحدَثين أنَّ موقف هيوم كان صحيحًا في ما يتعلَّق بدور الدَّافع والعقل في السلوك؛ فكلُّ فعل هو تنفيذ لدافع ما: والأفعال الصحيحة هي نتائج دوافع منظَّمة بصورة متماسكة في ذات منسجمة واجتماعيَّة؛ أمَّا الأفعال الخاطئة فهي عكس ذلك. والإنسان السليم الخلق هو الذي تتَّحد دوافعه باستمرار في شخصيَّة تنسجم مع نفسها ومع المجتمع، أمَّا العكس فهو حالة الإنسان الفاسق)[1].

وحريٌّ بالقول: أنَّ هيوم فيلسوف لذَّيٌّ أحيانًا، يستخدم الخير والشرَّ؛ بوصفهما مرادفين للَّذَّة والألم. ومع ذلك، فهو ليس على الإطلاق فيلسوفًا أنانيًّا؛ مثل: هوبز. صحيح أنَّ حبَّ الذَّات يدفع إنسانًا إلى أن يؤثِر لذَّته الخاصَّة، لكنْ لنفترض أنَّه يرى شخصًا آخر ذا لذَّة أشدَّ أو ألمًا. أعني، إذا تحدَّثنا بسيكولوجيا هيوم، أنَّه يكوِّن فكرة عن مشاعر الشخص الآخر، هذه الفكرة تزداد في الحيويَّة؛ كلَّما استمرَّ في ملاحظته، حتى أنَّها تتطوَّر إلى انطباع فعليٍّ من اللَّذة أو الألم يشعر به هو نفسه، وتصبح لذَّة الشخص الآخر أو ألمه، لذَّته هو أو ألمه هو، وتمدُّ سلوكه الخاصّ بدوافع. ويسمِّي

(1) Ipid, p. 55.

هيوم تلك العمليَّة بالتَّعاطف Sympathy، الذي يصبح الناس نتيجة له مهتمِّين بالرَّخاء العامِّ، ويبحثون عن خير عامٍّ مشترك. إنَّ ما يجلب لذَّة على المدى البعيد؛ سواء للفرد أم للآخرين، له منفعة، عند هيوم. والمنفعة تسبِّب لنا لذَّة بطريقة معيَّنة وخاصَّة، باستقلال عن - وبالإضافة إلى - أيِّ تجربة مباشرة عن نتائجها السارَّة Pleasant. وهو يفسِّر أحيانًا الاستحسان المحايد لأفعال مفيدة من طريق وجود حاسَّة خلقيَّة moral sense، يطوِّرها تداعي الأفكار، تلجأ إليها المنفعة. فالفضائل خيِّرة بسبب منفعتها؛ فإذا لم تحقِّق الفضائل الرَّخاء العامَّ، فإنَّها لا تكون خيِّرة. وبعض الفضائل؛ مثل: محبَّة الآباء، والأريحيَّة؛ هي فضائل طبيعيَّة، طالما أنَّها تتطوَّر تلقائيًّا، وتلجأ مباشرة إلى الحاسَّة الخلقيَّة، بينما العدالة هي - من ناحية أخرى - نتاج اصطناعيٍّ للوسائل البشريَّة الواعية، على الرغم من أنَّها ليست مرغوبة على نحو أقلَّ؛ نتيجة لهذا السبب.

ويستمرُّ هيوم في استخدامه لمفهوم الحاسَّة الخلقيَّة، ويتابع في ذلك تراثًا في الأخلاق. وكان "أيرل الثالث أوف شافتسبري" و"فرانسيس هاتشيسون" من أكثر ممثِّليه شهرة. ولقد مهَّد استخدامه للتعاطف الطريق أمام آدم سميث. أمَّا معالجته للمنفعة فجعلته مبشِّرًا بـ "بنتام" والنفعيِّين الآخرين في القرن التاسع عشر. وهو بتطوير أفكاره عن الحاسَّة الخلقيَّة، والتعاطف، والمنفعة، قام بإسهامات بالنسبة إلى ثلاث مدارس مختلفة من مدارس الأخلاق الحديثة، ومن المشكوك فيه إمكان التوفيق بين التصوُّرات الثلاثة توفيقًا تامًّا.

على أيِّ حال، يمكن القول ختامًا، أنَّ هيوم لم ينظِّم تفكيره في الأخلاق في مذهب واضح.